ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ(١) فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

المهاجرون قوم آمنوا بالله إيماناً صار إلى مرتبة من مراتب اليقين جعلتهم يتحمَّلون الأذى والظلم والاضطهاد فى سبيل إيمانهم ، فلا يمكن أن يُضحِّى الإنسان بماله وأهله ونفسه إلا إذا كان لأمر يقينىّ .

وقد جاءت هذه الآية بعد آية إثبات البعث الذى أنكره الكافرون وألحُّوا فى إنكاره وبالغوا فيه ، بل وأقسموا على ذلك :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [النحل]

وهم يعلمون أن من الخلق مَنْ يُسيء ، ومنهم من يُحسِن ، فهل يعتقدون - فى عُرْف العقل - أن يتركَ الله مَنْ أساء ليُعربد فى خَلْق الله دون أن يُجازيه ؟

ذلك يعنى أنهم خائفون من البعث ، فلو أنهم كانوا محسنين لَتَمنَّوا البعث ، أمَا وقد أسرفوا على أنفسهم إسرافاً يُشفقون معه على أنفسهم من الحساب والجزاء ، فمن الطبيعى أنْ يُنكِروا البعث ،

---

(١) بوأه : أسكنه . وبوأه فى الأرض : مكَّن له فيها . والمعنى : أى ننزلهم منزلة حسنة بالنصر وإغداق النعم عليهم فى الدنيا . [القاموس القويم ١/ ٨٨] .

ويلجأوا إلى تمنية أنفسهم بالأمانى الكاذبة ، ليطمئنوا على أن ما أخذوه من مظالم الناس ودمائهم وكرامتهم وأمنهم أمرٌ لا يُحاسبون عليه .

وإذا كانوا قد أنكروا البعث ، ويوجد رسول ومعه مؤمنون به يؤمنون بالبعث والجزاء إيماناً يصل إلى درجة اليقين الذى يدفعهم إلى التضحية فى سبيل هذا الإيمان .. إذن : لا بُدَّ من وجود معركة شرسة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، معركة بين الحق والباطل .

ومن حكمة الله أن ينتشر الإسلام فى بدايته بين الضعفاء ، حتى لا يظن ظَانٌّ أن المؤمنين فرضوا إيمانهم بالقوة ، لا .. هؤلاء هم الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، والكفار هم السادة .. إذن : جاء الإسلام ليعاند الكبارَ الصناديدَ العتاة .

وكان من الممكن أن ينصرَ الله هؤلاء الضعفاء ويُعلى كلمة الدين من البداية ، ولكن أراد الحق تبارك وتعالى أن تكون الصيحةُ الإيمانية فى مكَّة أولاً ؛ لأن مكة مركز السيادة فى جزيرة العرب ، وقريش هم أصحاب المهابة وأصحاب النفوذ والسلطان ، ولا تقوى أىّ قبيلة فى الجزيرة أن تعارضها ، ومعلوم أنهم أخذوا هذه المكانة من رعايتهم لبيت الله الحرام وخدمتهم للوافدين إليه[1] .

فلو أن الإسلام اختار بقعة غير مكة لَقَالوا : إن الإسلام استضعفَ جماعة من الناس ، وأغرَاهم بالقول حتى آمنوا به . لا ،

(١) يدل على هذا قوله تعالى : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. ⦗١٩⦘﴾ [التوبة] .

فالصيحة الإسلاميةُ جاءت فى أذن سادة قريش وسادة الجزيرة الذين أمَّنهم الله فى رحلة الشتاء والصيف ، وهم أصحاب القوة وأصحاب المال .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم ينصر الله دينه فى بلد السادة ؟ نقول : لا .. الصيحة فى أذن الباطل تكون فى بلد السادة فى مكة ، لكن نُصْرة الدين لا تأتى على يد هؤلاء السادة ، وإنما تأتى فى المدينة .

وهذا من حكمة الله تعالى حتى لا يقول قائل فيما بعد : إن العصبية لمحمد فى مكة فرضتْ الإيمان بمحمد .. لا بل يريد أن يكون الإيمان بمحمد ﷺ هو الذى خلق العصبية لمحمد ، فجاء له بعصبية بعيدة عن قريش ، وبعد ذلك دانتْ لها قريش نفسها .

وما دامت هناك معركة ، فمَن المطحون فيها ؟ المطحون فيها هو الضعيف الذى لا يستطيع أنْ يحميَ نفسه .. وهؤلاء هم الذين ظُلموا .. ظُلموا فى المكان الذى يعيشون فيه ؛ ولذلك كان ولا بُدَّ أن يرفع الله عنهم هذا الظلم .

وقد جاء رَفْع الظلم عن هؤلاء الضعفاء على مراحل .. فكانت المرحلة الأولى أن ينتقلَ المستضعفون من مكة ، لا إلى دار إيمان تحميهم وتساعدهم على نَشْر دينهم ، بل إلى دار أَمْن فقط يأمنون فيها على دينهم .. مجرد أَمْن يتيح لهم فرصة أداء أوامر الدين .

ولذلك استعرض رسول الله ﷺ البلاد كلها لينظر أىَّ الأماكن تصلح دار أَمْن يهاجر إليها المؤمنون بدعوته فلا يعارضهم أحد ، فلم

يجد إلا الحبشة ؛ ولذلك قال عنها : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه »[1] .

وتكفى هذه الصفة فى مَلِك الحبشة ليهاجر إليه المؤمنون ، ففى هذه المرحلة من نُصْرة الدين لا نريد أكثر من ذلك ، وهكذا تمت الهجرة الأولى إلى الحبشة .

ثم يسَّر الله لدينه أتباعاً وأنصاراً التقوْا برسول الله ﷺ وبايعوه على النُّصْرة والتأييد ، ذلكم هم الأنصار من أهل المدينة الذين بايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة ومَهَّدوا للهجرة الثانية إلى المدينة ، وهى هجرةٌ ـ هذه المرة ـ إلى دار أَمْن وإيمان ، يأمن فيها المسلمون على دينهم ، ويجدون الفرصة لنشره فى رُبُوع المعمورة .

ونقف هنا عند قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا.. ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل]

ومادة هذا الفعل : هجر .. وهناك فَرْق بين هجر وبين هاجر :

هجر : أن يكره الإنسانُ الإقامةَ فى مكان ، فيتركه إلى مكان آخر يرى أنه خَيْرٌ منه ، إنما المكان نفسه لم يُكرهه على الهجرة .. أى المعنى : ترك المكان مختاراً .

أما هاجر : وهى تدل على المفاعلة من الجانبين ، فالفاعل هنا

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) ، وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية بنحوه (١/٣٢١) .

ليس كـارهاً للمكان ، ولكن المـفاعلة التـى حدثتْ من القـوم هـى التى اضطرتْه للهجرة .. وهذا ما حدث فى هجرة المؤمنين من مكة ؛ لأنهم لم يتركوها إلى غيرها إلاَّ بعد أن تعرضوا للاضطهاد والظُّلْم ، فكأنهم بذلك شـاركـوا فى الفـعل ، فلو لم يتـعـرَّضـوا لهم ويظلمـوهم لمـا هاجروا .

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٤١)﴾ [النحل]

وينطبق هذا المعنى على قول المتنبى[1] :

إذَا ترحلْتَ عن قوْمٍ وقَدْ قَدَرُوا   ألاَّ تُفارِقهم فَالراحِلُون هُمُوا

يعنى : إذا كنت فى جـماعة وأردْتَ الرحـيل عنهم ، وفى إمكانهم أن يقدمـوا لك من المسـاعدة مـا يُيسِّـر لك الإقامـة بينهم ولكنهم لم يفعلوا ، وتركـوك ترحل مع مقدرتهم ، فـالراحلون فى الحقيـقة هم ، لأنهم لم يساعدوك على الإقامة .

كذلـك كانت الحـال عندما هاجـر المؤمنون من مكة ؛ لأنه أيـضاً لا يعقل أن يكره هؤلاء مكة وفيها البيت الحرام الذى يتمنى كل مسلم الإقامة فى جواره .

إذن : لم يترك المهاجرون مكة ، بـل اضطروا إلى تركها وأجبروا

---

(١) هو : أحمد بن الحسـين ، أبو الطيب المتنبى ، ولد بالكوفة (٣٠٣ هـ) . قال الشعـر صبياً ، ادعى النبـوة فى بادية السمـاوة وسجنه أمـير حمص حـتى تاب ورجع عن دعواه . وفـد على الحكام والولاة فمدحهم شعراً وحظى عندهم ، زار حلب ومصر وبغداد وفارس وقتل بالنعمانية على يد فاتك بن أبى جهل عام (٣٥٤ هـ) عن ٥١ عاماً . (الإعلام ١/١١٥) .

عليه ، وطبيعى إذن أن يلجأوا إلى دار أخرى حتى تقوى شوكتهم ، ثم يعودون للإقامة ثانية فى مكة إقامة طبيعية صحيحة .

ثم إن الحق تبارك وتعالى قال :

﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ .. ﴿٤١﴾﴾ [النحل]

ونلاحظ فى الحديث الشريف الذى يوضح معنى هذه الآية :

« فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها[1] فهجرته إلى ما هاجر إليه »[2] .

فما الفرق هنا بين : هاجر فى الله ، وهاجر إلى الله ؟

هاجر إلى مكان تدل على أن المكان الذى هاجر إليه أفضل من الذى تركه ، وكان الذى هاجر منه ليس مناسباً له .

أما هاجر فى الله فتدل على أن الإقامة السابقة كانت أيضاً فى الله .. إقامتهم نفسها فى مكة وتحمُّلهم الأذى والظلم والاضطهاد كانت أيضاً فى الله .

أما لو قالت الآية « هاجروا إلى الله » لدلَّ ذلك على أن إقامتهم الأولى لم تكن لله .. إذن : معنى الآية :

---

(١) أخرج سعيد بن منصور من قول ابن مسعود أن رجلاً هاجر ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس ، فكان يقال له : مهاجر أم قيس . [أورده ابن حجر فى فتح البارى ١/ ١٠] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ .. (٤١)﴾ [النحل]

أى : أن إقامتهم كانت لله ، وهجرتهم كانت لله .

ومثل هذا قوله تعالى :

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣)﴾ [آل عمران]

أى : إذا لم تكونوا فى مغفرة فسارعوا إلى المغفرة ، وفى الآية الأخرى :

﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٦١)﴾ [المؤمنون]

ذلك لأنهم كانوا فى خير سابق ، وسوف يسارعون إلى خير آخر .. أى : أنتم فى خير ولكن سارعوا إلى خير منه .

وهناك ملمح آخر فى قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا .. (٤١)﴾ [النحل]

نلاحظ أن كلمة « الذين » جمع .. لكن هل هى خاصة بمَنْ نزلت فيهم الآية ؟ أم هى عامة فى كُلِّ مَنْ ظُلِم فى أىِّ مكان - فى الله - ثم هاجر منه ؟

الحقيقة أن العبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهى عامة فى كل مَنْ انطبقت عليه هذه الظروف ، فإن كانت هذه الآية نزلت[1] فى نفر من الصحابة منهم : صُهيب ، وعمار ، وخباب ، وبلال ، إلا أنها تنتظم غيرهم مِمَّن اضطروا إلى الهجرة فِراراً بدينهم .

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٠) ، والقرطبى فى تفسيره (٣٨٢١/٥) .

ونعلم قصة صهيب رضى الله عنه ـ وكان رجلاً حداداً ـ لما أراد أنْ يهاجر بدينه ، عرض الأمر على قريش : والله أنا رجل كبير السِّنِّ ، إنْ كنت معكم فلن أنفعكم ، وإنْ كنت مع المسلمين فلن أضايقكم ، وعندى مال .. خذوه واتركونى أهاجر ، فرضَوْا بذلك ، وأخذوا مال صُهَيب وتركوه لهجرته .

ولذلك قال له ﷺ : « ربح البيع يا صُهَيْب »[1] أى : بيعة رابحة .

ويقول له عمر ـ رضى الله عنه : « نِعْم العبدُ صُهيب ، لو لم يخَفِ الله لم يَعْصِه » .

وكان عدم عصيانه ليس خوفاً من العقاب ، بل حُباً فى الله تعالى ، فهو سبحانه لا يستحق أنْ يُعصى .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً .. (٤١)﴾ [النحل]

نُبوِّىء ، مثل قوله تعالى :

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ.. (٢٦)﴾ [الحج]

أى : بيَّنا له مكانه ، ونقول : باء الإنسان إلى بيته إذا رجع إليه ، فالإنسان يخرج للسعى فى مناكب الأرض فى زراعة أو تجارة ، ثم يأوى ويبوء إلى بيته ، إذن : باء بمعنى رجع ، أو هو مسكن الإنسان ، وما أعدَّه الله له .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/١٥١ ، ١٥٣) من حديث صهيب رضى الله عنه ، وكذا الحاكم فى مستدركه (٣/٣٩٨) .

فإنْ كان المؤمنون سيخرجون الآن من مكة مغلوبين مضطهدين فسوف نعطيهم ونُحلهم ونُنزلهم منزلةً أحسن من التي كانوا فيها ، فقد كانوا مُضطهدين في مكة ، فأصبحوا آمنين في المدينة ، وإنْ كانوا تركوا بلدهم فسوف نُمهِّد لهم الدنيا كلها ينتشرون فيها بمنهج الله ، ويجنُون خير الدنيا كلها ، ثم بعد ذلك نُرجعهم إلى بلدهم سادة أعزّة بعد أن تكون مكة بلداً لله خالصة من عبادة الأوثان والأصنام .. هذه هي الحسنة في الدنيا .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل]

ما ذكرناه من حسنة الدنيا وخيرها للمؤمنين هذا من المعجّلات للعمل ، ولكن حسنات الدنيا مهما كانت ستؤول إلى زوال ، إما أنْ تفارقها ، وإما أن تُفارقك ، وقد أنجز الله وَعْده للمؤمنين في الدنيا ، فعادوا منتصرين إلى مكة ، بل دانتْ لهم الجزيرة العربية كلها بل العالم كله ، وانساحوا في الشرق في فارس ، وفي الغرب في الرومان ، وفي نصف قرن كانوا سادة العالم أجمع .

وإنْ كانت هذه هي حسنة الدنيا المعجّلة ، فهناك حسنة الآخرة المؤجلة :

﴿ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل]

أي : أن ما أعدّ لهم من نعيم الآخرة أعظم مما وجدوه في الدنيا .

ولذلك كان سيدنا عمر - رضي الله عنه - إذا أعطى أحد الصحابة

نصيب المهاجرين من العطاء يقول له : « بارك الله لك فيه .. هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة أكبر من هذا »[1]

فهذه حسنة الدنيا .

﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل]

وساعة أنْ تسمعَ كلمة (أكبر) فاعلم أن مقابلها ليس أصغر أو صغير ، بل مقابلها (كبير) فتكون حسنة الدنيا التي بوَّأهم الله إياها هي (الكبيرة) ، لكن ما ينتظرهم في الآخرة (أكبر) .

وكذلك قد تكون صيغةُ أفعل التفضيل أقلَّ في المدح من غير أفعل التفضيل .. فمن أسماء الله الحسنى (الكبير) في حين أن الأكبر صفةٌ من صفاته تعالى ، وليس اسماً من أسمائه ، وفي شعار نداءاتنا لله نقول : الله أكبر ولا نقول : الله كبير .. ذلك لأن كبير ما عداه يكون صغيراً .. إنما أكبر ، ما عداه يكون كبيراً ، فنقول في الأذان : الله أكبر لأن أمور الدنيا في حَقِّ المؤمن كبيرة من حيث هي وسيلة للآخرة .

فإياك أنْ تظنَّ أن حركةَ الدنيا التي تتركها من أجل الصلاة أنها صغيرة ، بل هي كبيرة بما فيها من وسائل تُعينك على طاعة الله ، فبها تأكل وتشرب وتتقوَّى ، وبها تجمع المال لتسُدَّ به حاجتك ، وتُؤدِّي الزكاة إلى غير ذلك ، ومن هنا كانت حركة الدنيا كبيرة ، وكانت الصلاة والوقوف بين يدي الله أكبر .

---

(١) أورد هذا الأثر القرطبي في تفسيره (٣٨٢٢/٥) ، وابن كثير في تفسيره (٥٧٠/٢) ، والسيوطي في الدر المنثور (١٣٢/٥) وعزاه لابن جرير الطبري ولابن المنذر .

ولذلك حينما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ۝٩ ﴾ [الجمعة]

أخرجنا بهذا النداء من عمل الدنيا وحركتها ، ثم قال :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ۝١٠ ﴾ [الجمعة]

فأمرنا بالعودة إلى حركة الحياة ؛ لأنها الوسيلةُ للدار الآخرة ، والمزرعة التى نُعد فيها الزاد للقاء الله تعالى .. إذن : الدنيا أهم من أنْ تُنسَى من حيث هى معونة للآخرة ، ولكنها أتفهُ من أن تكونَ غاية فى حَدِّ ذاتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٤١ ﴾ [النحل]

الخطاب هنا عن مَنْ ؟ الخطاب هنا يمكن أن يتجه إلى ثلاثة أشياء :

يمكن أنْ يُراد به الكافرون .. ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون عاقبة الإيمان وجزاء المؤمنين لآثروه على الكفر .

ويمكن أنْ يُراد به المهاجرون .. ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون لازدادوا فى عمل الخير .

وأخيراً قد يُراد به المؤمن الذى لم يهاجر .. ويكون المعنى : لو كان يعلم نتيجة الهجرة لسارع إليها .

وهذه الأوْجه التي يحتملها التعبير القرآني دليل على ثراء الأداء وبلاغة القرآن الكريم ، وهذا ما يسمونه تربيب الفوائد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى يريد أن يعطينا تشريحاً لحال المهاجرين ، فقد ظُلموا واضْطهدوا وأوذُوا في سبيل الله ، ولم يفتنهم هذا كله عن دينهم ، بل صبروا وتحمَّلوا ، بل خرجوا من أموالهم وأولادهم ، وتركوا بلدهم وأرضهم في سبيل دينهم وعقيدتهم ، حدث هذا منهم اتكالاً على أن الله تعالى لن يُضيِّعهم .

ولذلك جاء التعبير القرآني هكذا ﴿ صَبَرُوا ﴾ بصيغة الماضي ، فقد حدث منهم الصبر فعلاً ، كأن الإيذاء الذي صبروا عليه فترة مضتْ وانتهت ، والباقي لهم عزَّة ومنَعة وقوة لا يستطيع أحد أنْ يضطهدهم بعْد ذلك ، وهذه من البشارات في الأداء القرآني .

أما في التوكل ، فقال تعالى في حقهم :

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النحل]

بصيغة المضارع ؛ لأن التوكُّل على الله حدث منهم في الماضي ، ومستمرون فيه في الحاضر والمستقبل ، وهكذا يكون حال المؤمن .

وبعد ذلك تكلَّم القرآن الكريم عن قضية وقف منها الكافرون أيضاً موقف العناد والمكابرة والتكذيب ، وهي مسألة إرسال الرسل ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

وقد اعترض المعاندون من الكفار على كون الرسول بشراً . وقالوا : إذا أراد الله أن يرسل رسولاً فينبغي أن يكون ملَكاً فقالوا :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

وكأنهم استقلُّوا الرسالة عن طريق بشر ؛ وهذا أيضاً من غباء الكفر وحماقة الكافرين ؛ لأن الرسول حين يُبلِّغ رسالة الله تقع على عاتقه مسئوليتان : مسئولية البلاغ بالعلم ، ومسئولية التطبيق بالعمل ونموذجية السلوك .. فيأمر بالصلاة ويُصلِّي ، وبالزكاة ويُزكِّي ، وبالصبر ويصبر ، فليس البلاغ بالقول وفقط ، لا بل بالسلوك العمليّ النموذجيّ .

ولذلك كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول عن رسول الله ﷺ : « كان خُلقه القرآن »[1]

وكان قرآناً يمشي على الأرض ، والمعنى : كان تطبيقاً كاملاً للمنهج الذي جاء به من الحق تبارك وتعالى .

ويقول تعالى في حقِّه ﷺ :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٩١ ، ١٦٣) ، والبيهقي في دلائل النبوة (١/٣١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها .

فكيف نتصور أن يكون الرسول ملَكاً ؟ وكيف يقوم بهذه الرسالة بين البشر ؟ قد يؤدى الملك مهمة البلاغ ، ولكن كيف يُؤدِّى مهمة القدوة والتطبيق العملى النموذجى ؟ كيف ونحن نعلم أن الملائكة خَلْق جُبلوا على طاعة الله :

﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

ومن أين تأتيه منافذ الشهوة وهو لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل ؟

فلو جاء ملَك برسالة السماء ، وأراد أن ينهى قومه عن إحدى المعاصى ، ماذا نتوقع ؟ نتوقع أن يقول قائلهم : لا .. لا أستطيع ذلك ، فأنت ملَك ذو طبيعة علوية تستطيع ترْك هذا الفعل ، أما أنا فلا أستطيع .

إذن : طبيعة الأُسْوة تقتضى أن يكون الرسول بشراً ، حتى إذا ما أمر كان هو أول المؤتمرين ، وإذا ما نهى كان هو أول المنتهين .

ومن هنا كان من امتنان الله على العرب ، ومن فضله عليهم أنْ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة]

فهو أولاً من أنفسكم ، وهذه تعطيه المباشرة ، ثم هو بشر ، ومن العرب وليس من أمة أعجمية .. بل من بيئتكم ، ومن نفس بلدكم مكة ومن قريش ؛ ذلك لتكونوا على علم كامل بتاريخه وأخلاقه وسلوكه ، تعرفون حركاته وسكناته ، وقد كنتم تعترفون له بالصدق

والأمانة ، وتأتمنونه على كل غَالٍ ونفيس لديكم لعلمكم بأمانته ، فكيف تكفرون به الآن وتتهمونه بالكذب ؟!

لذلك رَدَّ عليهم الحق تبارك وتعالى في آية أخرى فقال :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

فالذي صَدَّكم عن الإيمان به كَوْنه بشراً !!

ثم نأخذ على هؤلاء مأخذاً آخر ؛ لأنهم تنازلوا عن دعواهم هذه بأنْ يأتيَ الرسول من الملائكة وقالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

فهذا تردُّد عجيب من الكفار ، وعدم ثبات على رأى .. مجرد لَجَاجة وإنكار ، وقديماً قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً .

ويرد عليهم القرآن :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء]

فلو كان في الأرض ملائكة لنزَّلنا لهم ملكاً حتى تتحقَّق الأسْوة .

إذن : لا بُدَّ في القدوة من اتحاد الجنس .. ولنضرب لذلك مثلاً : هَبْ أنك رأيتَ أسداً يثور ويجول في الغابة مثلاً يفترس كُلَّ ما أمامه ،

---

(١) يقصدون مكة والطائف ، وقد ذكر غير واحد أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي . قال ابن كثير في تفسيره (٤/١٢٧) : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

ولا يستطيع أحد أنْ يتعرَّض له .. هل تفكر ساعتها أن تصير أسداً ؟ لا .. إنما لو رأيتَ فارساً يمسك بسيفه ، ويطيح به رقاب الأعداء .. ألاَ تحب أن تكون فارساً ؟ بلى أحب .

فهذه هى القدوة الحقيقية النافعة ، فإذا ما اختلف الجنس فلا تصلح القدوة .

وهنا يردُّ الحق تبارك وتعالى على افتراءات الكفار بقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. (٤٣) ﴾ [النحل]

أى : أنك يا محمد لَسْتَ بدْعاً[1] فى الرسل ، فَمَنْ سبقوك كانوا رجالاً طيلة القرون الماضية ، وفى موكب الرسالات جميعاً .

وجاءتْ هنا كلمة ﴿ رجالاً ﴾ لتفيد البشرية أولاً كجنس ، ثم لتفيد النوع المذكَّر ثانياً ؛ ذلك لأن طبيعة الرسول قائمة على المخالطة والمعاشرة لقومه .. يظهر للجميع ويتحدث إلى الجميع .. أما المرأة فمبنية على التستُّر ، ولا تستطيع أن تقوم بدور الأُسْوة للناس ، ولو نظرنا لطبيعة المرأة لوجدنا فى طبيعتها أموراً كثيرة لا تناسب دور النبوة ، ولا تتمشَّى مع مهمة النبى ، مثل انقطاعها عن الصلاة والتعبد لأنها حائض أو نُفَساء .

كذلك جاءت كلمة ﴿ رِجَالاً ﴾ مُقيَّدة بقوله :

﴿ نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. (٤٣) ﴾ [النحل]

(١) بدع : بديع أو عجيب . قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ .. (٩) ﴾ [الأحقاف] أى : ما كنت غريباً ولا عجيباً ، ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

فـالرســول رجل ، ولكن إياك أنْ تقـول : هو رجل مـثْلى وبشـر مثْلى .. لا هناك مَيْزة أخـرى أنه يُوحَى إليه ، وهذه منزلة عالية يجب أن نحفظها للأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

أى : إذا غـابتْ عنكم هذه القـضيـة ، قـضيـة إرسـال الرسل من البشر ـ ولا أظنها تغيب ـ لأنها عـامة فى الرسالات كلها . وما كانت لتـخفَى عليكم خـصوصـاً وعندكم أهل العلم بالأديان السـابقة ، مـثل ورقة بن نوفل وغيره ، وعندكم أهل السِّيَر والتاريخ ، وعندكم اليهود والنصارى .. فاسألوا هؤلاء جميعاً عن بشرية الرسل .

فهذه قـضية واضحة لا تُنكر ، ولا يمـكن المخالفة فيـها .. وماذا سيقول اليهود والنصارى ؟ .. موسى وعيسى .. إذنْ بشر .

وقوله تعالى :

﴿ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

يوحى بأنهم يعلمون ، وليس لديهم شكٌّ فى هذه القـضية .. مثل لو قلتَ لمخـاطبك : اسأل عن كذا إنْ كنـتَ لا تعرف .. هذا يعنى أنه يعرف ، أما إذا كان فى القضية شكٌّ فنقول : اسأل عن كذا دون أداة الشرط .. إذن : هم يـعرفون ، ولكنه الـجدال والعناد والاسـتكبار عن قبول الحق .

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ(١) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾

استهل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ .. (٤٤) ﴾ [النحل]

ويقول أهل اللغة : إن الجار والمجرور لا بُدَّ له من متعلق .. فبماذا يتعلق الجار والمجرور هنا ؟ قالوا : يجوز أنْ يتعلّق بالفعل (نُوحِي) ويكون السياق : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحِي إليهم بالبينات والزبر .

وقد يتعلق الجار والمجرور بأهل الذكر .. فيكون المعنى : فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبر ، فهذان وجهان لعودة الجار والمجرور .

والبينات : هي الأمر البيِّن الواضح الذي لا يشكُّ فيه أحد .. وهو إما أن يكون أمارة ثُبوت صِدْق الرسالة كالمعجزة التي تتحدى المكذِّبين أنْ يأتوا بمثلها .. أو : هي الآيات الكونية التي تلفتُ الخَلْق إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم .

---

(١) الزُّبُر : الكتب . والزَّبْر : الكتابة . وقد غلب الزبور على صحف داود عليه السلام . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥) ﴾ [الأنبياء] قال أبو هريرة : الزبور ما أنزل على داود من بعد التوراة .

أما الزُّبُر ، فمعناها : الكتب المكتوبة .. ولا يُكتب عادة إلا الشيء النفيس مخافة أنْ يضيعَ ، وليس هنا أنفَسُ مما يأتينا من منهج الله ليُنظِّم لَنا حركة حياتنا .

ونعرف أن العرب ـ قديماً ـ كانوا يسألون عن كُلِّ شيء مهما كان حقيراً ، فكان عندهم علمٌ بالسهم ومَنْ أول صانع لها ، وعن القوس والرَّحْل ، ومثل هذه الأشياء البسيطة .. ألاَ يسألون عن آيات الله في الكون وما فيها من أسرار وعجائب في خَلْقها تدلُّ على الخالق سبحانه وتعالى ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [النحل]

كلمة الذكر وردتْ كثيراً في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة ، وأصْلُ الذكر أنْ يظلَّ الشيءُ على البال بحيث لا يغيب ، وبذلك يكون ضدّه النسيان .. إذن : عندنا ذِكْر ونسيان .. فكلمة « ذكر » هنا معناها وجود شيء لا ينبغي لنا نسيانه .. فما هو ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق آدم ـ عليه السلام ـ أخذ العهد على كُلِّ ذرَّة فيه ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وأَخْذ العهد على آدم هو عَهْد على جميع ذريته ، ذلك لأن فى كُلّ واحد من بنى آدم ذَرَّة من أبيه آدم .. وجزءاً حياً منه نتيجة التوالُد والتناسُل منْ لَدُن آدم حتى قيام الساعة ، وما دُمْنا كذلك فقد شهدنا أخذ العهد : ﴿ أَلَسْتُ بربِّكُمْ ﴾ .

وكأن كلمة (ذكر) جاءت لِتُذكِّرنا بالعهد المطمور فى تكويننا ، والذى ما كان لنا أنْ ننساه ، فلما حدث النسيان اقتضى الأمرُ إرسالَ الرسل وإنزالَ الكتب لِتذكِّرنا بعهد الله لنا :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

ومن هنا سَمَّينا الكتب المنزلة ذكراً ، لكن الذكْر يأتى تدريجياً وعلى مراحل .. كلُّ رسول يأتى ليُذكِّر قومه على حَسْب ما لديهم من غفلة .. أما الرسول الخاتم ﷺ الذى جاء للناس كافّة إلى قيام الساعة ، فقد جاء بالذكر الحقيقى الذى لا ذِكْر بعده ، وهو القرآن الكريم .

وقد تأتى كلمة (الذكْر) بمعنى الشَّرَف والرِّفْعة كما فى قوله تعالى للعرب :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء]

وقد أصبح للعرب مكانة بالقرآن ، وعاشت لغتهم بالقرآن ، وتبوءوا مكان الصدارة بين الأمم بالقرآن .

وقد يأتى الذكْر من الله للعبد ، وقد يأتى من العبد لله تعالى كما فى قوله سبحانه :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة]

والمعنى : فاذكرونى بالطاعة والإيمان أذكركم بالفيوضات والبركة والخير والإمداد وبثوابى .

وإذا أطلقت كلمة الذكر انصرفت إلى ما نزل على رسول الله ﷺ ؛ لأنه الكتاب الجامع لكُلِّ ما نزل على الرسُل السابقين ، ولكل ما تحتاج إليه البشرية إلى أنْ تقومَ الساعة .

كما أن كلمة كتاب تطلق على أى كتاب ، لكنها إذا جاءت بالتعريف (الكتاب) انصرفت إلى القرآن الكريم ، وهذا ما نسميه (علَم بالغلبة) .

والذكْر هو القرآن الذى نزل على محمد ﷺ ، وهو معجزته الخالدة فى الوقت نفسه ، فهو منهج ومعجزة ، وقد جاء الرسُل السابقون بمعجزات لحالها ، وكتب لحالها ، فالكتاب منفصل عن المعجزة .

فموسى كتابه التوراة ومعجزته العصا ، وعيسى كتابه ومنهجه الإنجيل ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص[(١)] وإحياء الموتى بإذن الله .

أما محمد ﷺ فمعجزته هى نفس كتاب منهجه ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر لتظلّ المعجزة مُسَاندة للمنهج إلى قيام الساعة .

وهذا هو السِّر فى أن الحق تبارك وتعالى تكفل بحفظ القرآن وحمايته ، فقال تعالى :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]

أما الكتب السابقة فقد عُهد إلى التابعين لكل رسول منهم بحِفْظ كتابه ، كما قال تعالى :

---

(١) الأكمه : المولود أعمى . وقد يكون حادثاً بعد بصر . والأبرص : من أصابه مرض البرص ، وهو مرض جلدى يُحدث بُقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه . [القاموس القويم مادتا : كمه ، برص] .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤) ﴾

[المائدة]

ومعنى استُحفظوا : أى طلبَ الله منهم أنْ يحفظوا التوراة ، وهذا أمْرُ تكليفٍ قد يُطاع وقد يُعصى ، والذى حدث أن اليهود عَصَوْا وبدّلوا وحَرَّفوا فى التوراة .. أما القرآن فقد تعهَّد الله تعالى بحفْظه ولم يترك هذا لأحد ؛ لأنه الكتاب الخاتَم الذى سيصاحب البشرية إلى قيام الساعة .

ومن الذِّكْر أيضاً ما جاء به الرسول ﷺ مع القرآن ، وهو الحديث الشريف ، فللرسول مُهمة أخرى ، وهى منهجه الكلاميّ وحديثه الشريف الذى جاء من مشْكاة القرآن مبيّناً له ومُوضّحاً له .. كما قال ﷺ :

« ألاَ وإنِّى قد أُوتيتُ القرآن ومِثْله معه ، يُوشك رجل شبعان يتكىء على أريكته يُحدِّث بالحديث عنِّى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حلَّلْناه ، وما وجدنا فيه من حرام حَرَّمناه ، ألاَ وإنَّه ليس كذلك »[1] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [النحل]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣١/٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٥٩١) ، وابن حبان (٩٧ - موارد الظمآن) من حديث المقدام بن معديكرب .

إذن : جاء القرآن كتابَ معجزة ، وجاء كتابَ منهج ، إلا أنه ذكر أصول هذا المنهج فقط ، ولم يذكر التعريفات المنهجية والشروح اللازمة لتوضيح هذا المنهج ، وإلاَّ لَطالتْ المسألة ، وتضخَّم القرآن وربما بَعُد عن مُرَاده .

فجاء القرآن بالأصول الثابتة ، وترك للرسول ﷺ مهمة أنْ يُبيّنه للناس ، ويشرحه ويُوضِّح ما فيه .

وقد يظن البعض أن كُلَّ ما جاءتْ به السُّنة لا يلزمنا القيام به ؛ لأنه سنة يُثَاب مَنْ فعلها ولا يُعاقب مَنْ تركها .. نقول : لا .. لابُدَّ أن نُفرِّق هنا بين سُنّية الدليل وسُنّية الحكم ، حتى لا يلتبس الأمر على الناس .

فسُنّية الدليل تعني وجود فَرْض ، إلا أن دليله ثابت من السنة .. وذلك كبيان عدد ركعات الفرائض : الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فهذه ثابتة بالسنة وهي فَرْض .

أما سُنّية الحكم : فهي أمور وأحكام فقهية وردت عن رسول الله ﷺ ، يُثَاب فاعلها ولا يُعاقب تاركها .. فحين يُبيِّن لنا الرسول بسلوكه وأسْوته حُكْماً ننظر : هل هي سُنّية الدليل فيكون فَرْضاً ، أم سُنّية الحكم فيكون سُنة ؟ ويظهر لنا هذا أيضاً من مواظبة الرسول على هذا الأمر ، فإنْ واظب عليه والتزمه فهو فَرْض ، وإنْ لم يواظب عليه فهو سُنة .

إذن : مهمة الرسول ليست مجرد مُنَاولة القرآن وإبلاغه للناس ، بل وبيان ما جاء فيه من المنهج الإلهي ، فلا يستقيم هنا البلاغ دون

بيــان .. ولابُدَّ أن نفـرِّق بيـن العطائين : الـعطاء القـرآنـى ، والعطاء النبوى .

ويجب أن نعلم هنا أن من الـمَيْزات التى ميِّـز بهـا النبى ﷺ عن سـائر إخـوانه من الرُّسُل ، أنه الـرسـول الوحـيـد الذى أمنه الله على التشريع ، فقد كان الرسل السابقون يُبلِّغون أوامر السماء فقط وانتهتْ المسألة ، أما محمد ﷺ فقد قال الحق تبارك وتعالى فى حقِّه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ⑦ ﴾ [الحشر]

إذن : أخذ مَيْـزة التشريع ، فأصـبحت سُنَّته هى التشـريع الثانى بعد القرآن الكريم .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ㊹ ﴾ [النحل]

يتـفكرون .. فى أى شىء ؟ يتفكرون فى حـال الرسول ﷺ قـبل البعثة ، حيث لم يُؤْثَر عنه أنه كـان خطيباً أو أديباً شاعراً ، ولم يُؤْثَر عنه أنه كان كاتبـاً مُتعلّماً .. لم يُعرف عنه هذا أبداً طيلة أربعـين عاماً من عمره الشريف ، لذلك أمرهم بالتفكُّر والتدبُّر فى هذا الأمر .

فليس مـا جاء به مـحمـد عبقـرية تفجَّـرت هكذا مرَّة واحـدة فى الأربعين من عمره ، فالعمر الطبيـعى للعبقريات يأتى فى أواخر العقْد الثانى وأوائل العقْد الثالث من العمر .

ولا يُعـقل أنْ تُؤجَّل العبـقرية عند رسـول الله إلى هذا السن وهو يرى القـوم يُصْرعون حـوله .. فيموت أبوه وهو فى بطـن أمه ، ثم

تموت أمه وما يزال طفلاً صغيراً ، ثم يموت جَدُّه ، فمَنْ يضمن له الحياة إلى سنِّ الأربعين ، حيث تتفجَّر عنده هذه العبقرية ؟!

إذن : تفكَّروا ، فليستْ هذه عبقرية من محمد ، بل هي أمْر من السماء ؛ ولذلك أمره ربُّه تبارك وتعالى أن يقول لهم :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

فكان عليكم أنْ تفكَّروا في هذه المسألة .. ولو فكرتُمْ فيها كان يجب عليكم أنْ تتهافتوا على الإسلام ، فأنتم أعلم الناس بمحمد ، وما جرَّبتم عليه لا كذباً ولا خيانةً ، ولا اشتغالاً بالشعر أو الخطابة ، فما كان لِيْصدق عندكم ويكذب على الله .

ولا بُدَّ أن نُفرِّق بين العقل والفكر . فالعقل هو الأداة التي تستقبل المحسَّات وتُميِّزها ، وتخرج منها القضايا العامة التي ستكون هي المبادىء التي يعيش الإنسان عليها ، والتي ستكون عبارة عن معلومات مُخْتزنة ، أما الفكر فهو أن تفكر في هذه الأشياء لكي تستنبط منها الحكم .

والله سبحانه وتعالى ترك لنا حُرية التفكير وحرية العقل في أمور دنيانا ، لكنه ضبطنا بأمور قَسْرية يفسد العالم بدونها ، فالذي يفسد العالم أن نترك ما شرعه الله لنا .. والباقي الذي لا يترتب عليه ضرر يترك لنا فيه مجالاً للتفكير والتجربة ؛ لأن الفشل فيه لا يضر .

فما أراده الله حُكْماً قسْرياً فرضه بنصٍّ صريح لا خلافَ فيه ، وما أراده على وجوه متعددة يتركه للاجتهاد حيث يحتمل الفعل فيه

أوجهاً متعددة ، ولا يؤدى الخطأ فيه إلى فساد .

فالمسألة ميزان فكرى يتحكم فى المحسَّات ويُنظم القضايا ، لنرى أولاً ما يريده الله بتّاً وما يريده اجتهاداً ، وما دام اجتهاداً فما وصل إليه المجتهد يصح أنْ يعبد الله به ، ولكن آفة الناس فى الأمور الاجتهادية أن منهم مَنْ يتهم مخالفه ، وقد تصل الحال بهؤلاء إلى رَمْى مخالفيهم بالكفر والعياذ بالله .

ونقول لمثل هذا : اتق الله ، فهذا اجتهادٌ مَنْ أصاب فيه فَلَهُ أجران ، ومَنْ أخطأ فله أجر[1] .. ولذلك نجد من العلماء مَنْ يعرف طبيعة الأمور الاجتهادية فنراه يقول : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب . وهكذا يتعايش الجميع وتُحترَم الآراء .

ومن رحمة الله بعباده أن يأمرهم بالتفكُّر والتدبُّر والنظر ؛ ذلك لأنهم خَلْقه سبحانه ، وهم أكرم عليه من أنْ يتركهم للضلال والكفر ، بعد أن أكرمهم بالخَلْق والعقل ، فأراد سبحانه أن يكرمهم إكراماً آخر بالطاعة والإيمان .

وكأنه سبحانه يقول لهم : رُدُّوا عقولكم ونفوسكم عن كبرياء الجدل ولَجَج الخصومة ، وإنْ كنتم لا تؤمنون بالبعث فى الآخرة ، وبما أُعدَّ للظالمين فيها من عقاب ، فانظروا إلى ما حدث لهم وما عُجِّل لهم من عذاب فى الدنيا .

---

(١) عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧١٦) ، والبخارى فى صحيحه (٧٣٥٢) .